انسانيّة شوهاء !..

بقلم الدكتور جورج حنا

إذا رغبت ايها الانسان ان ترى مشهداً تحمرّ منه عيناك وتتقزز له نفسك ، فاذهب يوم العيد في جولة على دور البر والاحسان ، او على الدور التي يطلق عليها هذا الاسم ، وشاهد بعينك قبل ان تحمرّ ، ما يقشعر له بدنك ، وعندها لا تلثم عينك إذا احمرتّ ، وقدح منها شرر الحقد على « انسانية » تستبيح إذلال الانسان والحطّ من قيمته ، بينما لا يخجل مدّعوها من القول بانهم اهل بر وخير وإحسان .

ولتكن جولتك ايها الانسان ، في الوقت الذي يوزّع فيه المحسنون إحسانهم ، او الاحسان الذي يجمعونه من التبرعات ، لترى الجماهير امام الدار: الولدان يخترقون الصفوف ببهلوانيتهم ، والنساء يستعنّ بالصياح ، والعجزة يتوكأون على عكاكيزهم ، ورجل الشرطة ، وهو ما لا يستغنى عنه في هذه المناسبة ، يرفس هذا ويدفش ذاك ، مستعيناً بسوطه عند الحاجة . ولا بدّ ان ترى ، مع من ترى ، رجلاً واقفاً على حافة عالية ، يحمل بيديه آلة التصوير ، ليصور جائعاً يلتقط رغيفاً او بيضة ، او حفنة من السكر والأرز ، من يد محسن او محسنة ، يشرئب او تشرئب تيهاً ، بيد ممدودة للعطاء ، فيما يكون الفقير المسكين مادّاً يد الذل ...

وإذا فاتك المشهد ايها الانسان ، فحاول الا يفوتك الاطلاع على الصحف الصادرة في اليوم التالي للعيد ، لتقرأ فيها الاشادة بانسانية المحسنين ، وتشاهد فيها الصور التي التقطها لهم ، بطلب منهم ، وباجرة اقتطعوها من رصيد التبرعات ، مصور الامس ، ثم قل لعينك ما أحلى احمرارك ، وقل لنفسك ما اقدس حقدك على هذه الانسانية الشوهاء ، وعلى هؤلاء المحسنين المتجبرين .

وكأني بالمحسنين هؤلاء ، يحسبون الاحسان بضاعة من بضاعة السوق ، تحتاج فيما تحتاج ، إلى من يسمسر لها ، او يسمسر عليها ، والى من ينفخ لها بالبوق ، وإلى من يسفّ بالاتجار بها ، طمعاً بما يحصل لهم عن طريقها من صيت ونفوذ ، او ما يجنونه من ارباح ، غير آبهين لانسانية الاحسان ، وللخير المتوخى منه للفقير والمحروم . ما كان اغنى البشرية عن هؤلاء المحسنين ، الذين تقرع لاحسانهم الطبول كلما أطعموا جائعاً ، او آووا يتيماً ، أو آسوا مريضاً ، متعمدين إذلال الجائع واليتيم والمريض ، متجاهلين تجاهلاً مقصوداً ذميماً ، ان الاحسان هو ما تفعله يمينك ولا تدري به يسارك ، وإن الاحسان الذي يذل نفس المحسَن اليه ، نقيصة لا الفضيلة ، وإن أذل انواع الذل ذل الاحسان .

ويحدثونك ايها الانسان عن الانسانية وقيمها ، واصولها وفنونها ، وأشكالها وألوانها ، كأن للانسانية اشكالاً وفنوناً وألواناً ، احاديث سداها دجل وشعوذة ، ولحمتها رياء ونفاق ، ويحدثونك عن محسنين يطوفون الاسواق لجمع التبرعات ، او لشحاذتها ، بعد ان يكونوا هم ، او ابناء فصيلتهم ، قد التهموا الاسواق وما في الاسواق ، وعن محسنين يطعمون جائعاً يوم العيد ، بعد ان يكونوا هم ، او ابناء فصيلتهم ، احتكروا الرغيف قبل العيد وبعد العيد ، وعن محسنين يواسون مريضاً بعد ان يكونوا هم أو ابناء فصيلتهم جعلوا من المرض والمريض تجارة تدر عليهم الربح الكثير ، ويصورون لك هؤلاء حملة لواء الانسانية وارباب المكرمات ، على صدورهم تتعزز الأوسمة ، وبمآثرهم يتحدث الخطباء والكتاب ، ألا قل لهم ان الانسانية الحقة براء من هؤلاء المحسنين ، وبراء مما يذاع عنهم ، ومما ينشر ويقال .

كان لي حديث ذات يوم مع نفر من هؤلاء المحسنين ، وكان حديثي معهم أقرب الى التوبيخ الناعم ، وعندما انكرت عليهم هذه الدعاية التي يحيطون بها اعمالهم الاحسانية ، او ما يسمونه هم أعمالاً احسانية ، أجابوني بعذر أقبح من ذنب ، وهو ان المؤسسة التي ينتمون اليها ، ويأتون اعمالهم باسمها ، مؤسسة دولية ، وان مركز هذه المؤسسة العام يشترط لمساعداته لهم ، ان يرسلوا له رسوم المشاهد التي أُخذت ، ليضمها إلى ملفّات اعمال المؤسسة الذائعة الصيت ، ويعرف العالم مدى خدمتها للانسانية ، فيثق بها المحسنون . وعندما عرفتُ المؤسسة ، وعرفت مركزها والقائمين بها ، انكشف لي السر ، الذي ما كنت أجهله كل الجهل من قبل ، وأيقنت ان مفهوم الانسانية عند هؤلاء يختلف كثيراً ، ويبتعد كثيراً عن مفهومها الصحيح .

يخطىء من يعتقد ان للانسانية ألواناً وأشكالا . الانسانية ليس لها إلا لون واحد ، هو لونها الانساني الذاتي المختص بها (Sui generis) ويخطىء من يعتقد ان الاحسان شكل من اشكال الانسانية . الاحسان مجرد تغطية لأعمال لا انسانية ، يحصل عنها حرمان الجماعات من حقهم في الحياة ، ومن مقومات الحياة ، فيسارع المحسنون إلى مدها بالشيء اليسير ، تخديراً لها

(البقية في أدنى الصفحة التالية)

على هامش كتاب

العربيّة النحو

بقلم عبد الله العلايلي

يرى الكاتب ان اللغة العربيــة تخضع ، شأنَ المؤسسات الاجتماعية كلها ، لقانون الغــاية ولا تخضع لقانون السببية كما هو الحال في العلوم التجريبية. ويسر « الآداب » ان تقدّم الى قرائها المعنيــين بالدراسات اللغوية هذا الرأي الوجيه الذي يشير الى اتجاهٍ ينطوي على كثير من التصحيح والتبسيط .

بين يدي كتاب قيم للدكتور انيس فريحة بعنوان «تبسيط قواعد العربية» ، ولست اكتم انه استهواني حقاً ، ثم تمادى بأثره عليّ فاستبد باهتمامي كله .

ويسرني ان أعاود حديث اللغة بعد ان تباعد ما بيني وبينه وما كان ذلك لجفوة عنه ، ولكن لأن كتاباً فيــه لم يحرك داعيتي اليه .

وأقول هذا باطلاق فيما اتفق ووقع إلي ، خلال مدة تبدأ من سنة ١٩٤٨ .. وأؤكد على الحيز الزمني ، انصافــاً لبعض جهود لا يسعني بحال إلا إكبارها ، كـ «معجم عطية في الدخيل» المطبوع في البرازيل ، و « الملحق المعجمي برواية سلمبو » للاب الرياشي ، و « تعديل القواعد العربية » ليوسف سعادة .

ففي اي منها محاولة أخذٍ من الأساس ، وعلى أنها تتفاوت في درجة توفيقها ، او قل بتعبير آخر: تتفاوت في درجة الحكم عليها في مجال القدْر ، تظل قيمتها في انها اعمال جذرية .

وخير العربية اليوم ، انما يرجى من هذا المتجه الذي يبتدىء البحثَ اللغوي من جديد ، ويأخذ اعتبارات المدرسة العتيقة على انها اعتبارات فقط ، لا على انها اللغة او قانون عملها الثابت.

وهذا الأخذ، من شأنه ان يميز ما هو أصيل مما هو مجتلب، وان يسلم اللغة الى الحياة إسلاماً عفوياً ، اي ان يردها الى محلها من الحاجة المتحولة .

فاللغة – ومنزلتها من التصنيف الاجتماعي ، انهــا مؤسسة مرتبطة مباشرةً بنشاط الانسان كافة – تتحرك بقانون الغــاية لا السببية .

فاذا غُلبت بقانون السببية الصرف ، واخضعت له في قسر وعنت ، مثلما فعل قدامى اللغويين ، تنعزل رأساً وتنقلب الى بناء فوقي منقطع « Superstructure » وإذ ذاك تحــدث الهوة بينها وبين الجماعة وتتضح ، لتؤول في النهاية الى أداة إرغــام ، تعبر الجماعة عن وطأتهــا بتأفف مكظوم ، ثم بتحرك انتفاضي للخروج .

وفي هذا وحده ، سر ما تطالعك به الجماعــات اليوم من تصعّب حيال العربية .. وظَنّ أنه لشيء أصيل في طبيعتها ، حتى خامر هذا الظن المنقطعين اليها درساً وتتبعاً وبحثــاً . .

واليك حكاية سيرها وتوقفها في يسر :

البيئة العربية الأولى على ما عرف التاريخ ، كان اللسان فيها وسيلة أولى وأكيدة من وسائل العيش والانتاج ، كما كان المعطى الفني الأوحد لديها . أضف الى هذا وهذا انها بيئة خلت من الطبقية .

فلا بدع إذن ان يرقى هذا اللسان ، بحكم كونه وسيلة من وسائل العيش والانتاج ، وتبعاً لرغبة ترقيتهــا المستمرة لدى

او اجتناباً لنقمتها ، وفي كلا الحالين، بقصد المحافظة على انظمة واوضاع حكومية وغير حكومية تستبيح الشعوذة بالانسانية.

كل الدعايات التي يروجونها لاعمال الاحسان وعنها ، وكل المؤسسات التي انشئت من اجل الاحسان وعلى ظهر الاحسان، وكل المحسنين الذين تحدث عنهم الناس عبر الاجيال وما زالوا يتحدثون عنهم بالتقدير والاجلال، كل هذا لم يقدّم الانسانية شيئاً . فالى ان تزول حاجة الانسان لطلب الاحسان وذلّ الاحسان ، يبقى مفهوم الانسانية بعيداً عن مفهومها الحقيقي ، وتبقى الانسانية وسيلة يستغلها ويربح منها المحسنون ، ويذلّ بواسطتها المحسَن اليهم والمحرومون .

لا . ليست الانسانية احساناً ولا تبرعاً برغيف . انمــا الانسانية إقرار بالحق ، واحترام لكل حق ، ونظــام يحسن توزيع الحق ، ولا يساوم ولا يتاجر بحق .

جورج حنا